تحقيق النهضة العظيمة: عملية لا يمكن إيقافها

شكّل عام ٢٠٢٥ عاما محوريا لمواصلة تعميق الإصلاحات بشكل شامل. وقد كان العام الأخير من الفترة الانتقالية التي استمرت خمس سنوات عقب اكتمال حملة القضاء على الفقر، كما كان العام الختامي للخطة الخمسية الرابعة عشرة، إضافة إلى كونه عاما كُرس لصياغة الخطة الخمسية الخامسة عشرة.

في مواجهة مشهد دولي معقد ومتقلب، ومهام داخلية شاقة في مجالات الإصلاح والتنمية والاستقرار، وحّدت لجنة الحزب المركزية، ونواتها الرفيق شي جين بينغ، الحزب بأكمله والشعب الصيني من جميع القوميات، وقادتهما لتجاوز الصعاب والمضي قدما بعزيمة راسخة، مُسطِّرة فصلا استثنائيا في مسيرة بناء دولة قوية وتحقيق النهضة الوطنية.

في معرض تلخيصه للعمل الاقتصادي في نهاية العام، أشار شي جين بينغ، الأمين العام للجنة الحزب المركزية، خلال مؤتمر العمل الاقتصادي المركزي، إلى أن اقتصاد الصين واصل التقدم رغم الضغوط، متجها نحو تنمية عالية الجودة، ومظهرا مرونة وحيوية كبيرتين.

في أبريل ٢٠٢٥، أعلنت الولايات المتحدة عن فرض "رسوم جمركية متبادلة" على جميع الشركاء التجاريين، وهو ما تصاعد سريعا إلى حرب رسوم جمركية غير مسبوقة. وردت لجنة الحزب المركزية، ونواتها الرفيق شي جين بينغ، بحزم هادئ وإجراءات فعالة.

وفي ٢٥ أبريل ٢٠٢٥، ترأس شي اجتماعا للمكتب السياسي للجنة الحزب المركزية، شدد فيه على ضرورة بذل جهود لتحقيق الاستقرار في التوظيف والشركات والأسواق والتوقعات، ووضع ترتيبات محددة لحزمة من الإجراءات السياساتية.

وأجرى شي أربع مكالمات هاتفية مع نظيره الأمريكي دونالد ترامب، أكد فيها مجددا أن جوهر العلاقات الاقتصادية والتجارية بين الصين والولايات المتحدة يقوم على المنفعة المتبادلة والتعاون المربح للجانبين، وأن الصين والولايات المتحدة يمكنهما تحقيق النجاح المتبادل والرخاء

المشترك، بما يعود بالنفع على البلدين والعالم.

وعقدت الفرق الصينية والأمريكية عدة جولات من المشاورات، أسفرت عن تقدم ملموس. وقد ضخ ذلك استقرارا تشتد الحاجة إليه في ظل مشهد التجارة العالمية المضطرب.

كلما زادت المخاطر والتحديات، زادت أهمية المضي قدما في الابتكار لتجاوز الاختناقات

وفي أبريل، زار شي حاضنة للنماذج الكبيرة سريعة النمو في شانغهاي، التي تعد إحدى مراكز الذكاء الاصطناعي في الصين. وجاءت هذه الجولة بعد أيام من انعقاد جلسة دراسة لقيادة الحزب الشيوعي الصيني حول تعزيز تطوير الذكاء الاصطناعي والإشراف عليه.

وعلى مدى العام الماضي، زار شي مرارا الخطوط الأمامية لمراكز الابتكار الأكثر دينامية في الصين، حيث أكد على الأهمية الحيوية لتحقيق مستوى عالٍ من الاعتماد على الذات في مجال العلوم والتكنولوجيا لدفع عملية التحديث الصيني، ووضع خططا رئيسية لتسريع تحويل وتطوير الصناعات التقليدية، وتعزيز نمو القطاعات الإستراتيجية الناشئة.

وقد أتى دفع الصين المستمر للابتكار على مدى عقد من الزمان ثماره. ففي عام ٢٠٢٥، دخلت الصين ضمن المراكز العشرة الأولى في مؤشر الابتكار العالمي، لتحل بين الاقتصادات التي شهدت أسرع تحسن في القدرة على الابتكار خلال العقد الماضي، بينما تصدّر تجمع شنتشن-هونغ كونغ-قوانغتشو للابتكار التصنيف العالمي.

إلى جانب الابتكار، يظل الإصلاح والانفتاح اللذان شكلا منذ فترة طويلة قوة دافعة للصعود الاقتصادي الإعجازي للصين وسيلتان رئيسيتان لإطلاق العنان لإمكانات جديدة.

ففي أوائل نوفمبر ٢٠٢٥، زار شي مقاطعة هاينان الواقعة في جنوبي البلاد، حيث اطلع على الاستعدادات الخاصة بإنشاء ميناء هاينان للتجارة الحرة.

وفي ١٨ ديسمبر ٢٠٢٥، أُطلقت العمليات الجمركية الخاصة على مستوى الجزيرة في ميناء هاينان للتجارة الحرة.

وقال شي خلال زيارته لهاينان "لقد التزمنا بالسير على طريق الإصلاح والانفتاح ذي الخصائص الصينية، خطوة بخطوة، للوصول إلى ما نحن عليه اليوم".

وشكّل تحويل هاينان إلى منطقة إشراف جمركي خاصة خطوة رئيسية في مسيرة انفتاح الصين على العالم على نطاق أوسع.

وخلال العام الماضي، دخلت سلسلة من إجراءات الإصلاح حيز التنفيذ. فقد سنت الصين

قانونا لتعزيز القطاع الخاص وعدلت تشريعات مكافحة المنافسة غير المشروعة. كما جرى تقليص القائمة السلبية للاستثمار الأجنبي بشكل أكبر، وتوسيع نطاق الوصول إلى خدمات مثل الاتصالات والتعليم والرعاية الصحية، فضلا عن تخفيف قواعد التأشيرات.

وقال شي "بما أن التحديث الصيني النمط يتقدم من خلال الإصلاح والانفتاح، فإنه سيحتضن آفاقا أوسع من خلال مزيد من الإصلاح والانفتاح".

خطة للسنوات الخمس المقبلة

بينما اختبر عام ٢٠٢٥ المرونة، فقد عزز أيضا التركيز على ما يحمله المستقبل. ففي أكتوبر، اعتمدت لجنة الحزب المركزية توصيات لوضع الخطوط العريضة للخطة الخمسية الخامسة عشرة خلال دورة كاملة رئيسية للحزب، وهو ما أسهم في رسم مسار تنمية الصين من عام ٢٠٢٦ إلى عام ٢٠٣٠.

وتحمل الخطة الخمسية المقبلة ثقلا غير عادي، إذ لم يتبق سوى عشر سنوات على عام ٢٠٣٥ - العام المحوري الذي تهدف فيه الصين إلى "تحقيق التحديث الاشتراكي بشكل أساسي". وهذا يمثل الهدف الأول في خطة ذات خطوتين وضعها شي لبناء الصين لتصبح دولة اشتراكية حديثة عظيمة على نحو شامل بحلول منتصف القرن.

وقال شي في الدورة الكاملة "لا يمكن تحقيق التحديث الاشتراكي إلا من خلال عملية تاريخية من التنمية التدريجية والمستمرة"، مضيفا أن "ذلك يتطلب بذل جهد دؤوب متواصل جيلا بعد جيل".

وفي الأشهر التي سبقت الاجتماع، قام شي بجولات تفقدية في المصانع والمجتمعات المحلية لتحديد الأولويات للسنوات الخمس المقبلة. فمن مصنع للصلب في لياونينغ إلى مصنع للمحامل في خنان، شدد على أن الاقتصاد الحقيقي يظل العمود الفقري للقوة الوطنية، داعيا إلى مزيد من الاعتماد على الذات في تقنيات التصنيع الأساسية.

وقد وضعت هذه التوصيات "بناء نظام صناعي حديث وتعزيز أسس الاقتصاد الحقيقي" في المقام الأول بين أكثر من عشرة مجالات ذات أولوية.

تحظى الاعتبارات الأمنية بنفس القدر من الأهمية. ففي ٢٨ فبراير ٢٠٢٥، قال شي لكبار قادة

الحزب إن كلا من التنمية والأمن أمران حيويان. وخلال زيارته لمنطقة شمال شرقي البلاد، أكد على مسؤوليات شمال شرقي الصين في حماية الدفاع الوطني، وأمن الغذاء، والأمن الإيكولوجي، وأمن الطاقة، والأمن الصناعي. وفي مقاطعة خنان، شدد على أهمية الأمن الغذائي.

ورفعت الدورة الكاملة التي عقدت في أكتوبر ٢٠٢٥ مقولة "ضمان التنمية والإصلاح والأمن" إلى مبدأ أساسي لفترة الخطة الخمسية الخامسة عشرة، داعية إلى ترسيخ الأمن بالتوازي مع التنمية والسعي إلى تحقيق التنمية في بيئة آمنة.

وتظل رفاهية ١,٤ مليار صيني دائما محور مسيرة التحديث الصيني النمط.

فخلال العام الماضي، زار شي الأسر على المستوى القاعدي في جميع أنحاء البلاد. وفي مقاطعة قويتشو الجبلية، تحدث مع القرويين حول الدخل.

وفي يوليو ٢٠٢٥، حضر شي اجتماعا رفيع المستوى بشأن التنمية الحضرية، حيث دفع نحو حملة حضرنة تضع الشعب في المقام الأول، داعيا إلى بناء مدن حديثة تكون مبتكرة وصالحة للعيش وجميلة ومرنة ونابضة بالحياة ثقافيا وذكية من أجل الشعب.

وبناء على ذلك، أبرزت التوصيات مسألة "تعزيز التنمية البشرية الشاملة" ضمن الفلسفة التوجيهية لتنمية الصين خلال السنوات الخمس المقبلة، مع الدعوة إلى زيادة الاستثمار في رأس المال البشري وتوسيع نطاق الخدمات العامة الأكثر شمولا.

الجانب الصحيح من التاريخ

في عام ٢٠٢٥، تعمقت الاضطرابات العالمية، بينما استمرت أشباح عقلية الحرب الباردة والهيمنة والحمائية في مطاردة المشهد الدولي.

وفي هذا السياق، طرح شي مبادرة الحوكمة العالمية خلال قمة منظمة شانغهاي للتعاون في سبتمبر. وسلطت المبادرة الضوء على خمس مبادئ، وهي الالتزام بالمساواة في السيادة، والالتزام بسيادة القانون الدولي، وممارسة التعددية، والدعوة إلى النهج الذي يضع الشعب في المقام الأول، والتركيز على اتخاذ إجراءات حقيقية. وجاءت هذه المبادرة بعد أن كان شي قد أعلن في السنوات السابقة عن ثلاث مبادرات عالمية بشأن التنمية والأمن والحضارة.

وقال "أتطلع إلى العمل مع جميع الدول من أجل نظام حوكمة عالمية أكثر عدلا وإنصافا".

صادف عام ٢٠٢٥ الذكرى الثمانين للانتصار في الحرب العالمية ضد الفاشية وتأسيس الأمم المتحدة. وقبل قمة منظمة شانغهاي للتعاون في تيانجين، التقى شي بالأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش وقال إن التعددية والتضامن والتعاون هي الطريق الصحيح لمواجهة التحديات العالمية.

وفي أبريل ٢٠٢٥، بعد حضوره مؤتمرا مركزيا حول دبلوماسية الجوار، بدأ شي زياراته لثلاث دول في جنوب شرقي آسيا، وهي فيتنام وماليزيا وكمبوديا. وخلال العام الماضي، امتد برنامج رحلاته من هناك إلى روسيا وكازاخستان وجمهورية كوريا، مما نسج شبكة كثيفة من الانخراط الإقليمي. وقد شبه هذه الزيارات بـ"زيارة الأقارب"، مؤكدا أن "مساعدة جيراننا على النجاح هي مساعدة لأنفسنا".

وفي وقت عمت فيه الدعوات إلى فك الارتباط وقطع السلاسل الصناعية ووضع المصلحة الذاتية في المقام الأول، حققت هذه الرحلات مكاسب كبيرة على صعيد التعاون، مما جلب استقرارا تشتد الحاجة إليه وأملا طويل الأجل للمنطقة في ظل مشهد دولي متقلب.

وتحت قيادة شي، عززت الصين أيضا التفاعل والتنسيق الإيجابيين مع الدول الكبرى في عام ٢٠٢٥، مما ساعد في ترسيخ الاستقرار الإستراتيجي العالمي. وعقد شي وترامب أول اجتماع لهما منذ ست سنوات في بوسان بكوريا الجنوبية في أكتوبر.

وقد تبادلا التحيات، وأجريا محادثات وجها لوجه، وعقدا مناقشة مغلقة. وبعد أكثر من ١٠٠ دقيقة، خرجا جنبا إلى جنب من صالة كبار الشخصيات، في مشهد أظهر للمراقبين آفاقا مشجعة.

وحث شي على بذل جهود مشتركة لضمان "إبحار سفينة العلاقات الصينية-الأمريكية بثبات إلى الأمام".

وقال شي "يمكن للصين والولايات المتحدة أن تتحملا معا مسؤوليتنا كدولتين كبيرتين، وتعملا معا لإنجاز المزيد من الأمور العظيمة والملموسة لما فيه خير بلدينا والعالم بأسره".

وفي عام ٢٠٢٥، تبادل شي والرئيس الروسي فلاديمير بوتين الزيارات. وأجرى شي مناقشات معمقة مع الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون بجوار سد يعود تاريخه إلى آلاف السنين في جنوب غربي الصين، وتعاون مع قادة الاتحاد الأوروبي لوضع مستقبل أكثر إشراقا للعلاقات على مدى الخمسين عاما المقبلة.

وقال شي "ينبغي على الدول الكبرى أن تتصرف بما يتناسب مع مكانتها وبقدر أكبر من الإحساس بالمسؤولية".

وقد قام ملك مملكة تونغا، توبو السادس، خلال زيارته إلى الصين في نوفمبر ٢٠٢٥ بزراعة عشب جيونتساو في جامعة بمقاطعة فوجيان شرقي الصين.

وعلى مر السنين، استطاعت هذه التقنية الصينية متعددة الاستخدامات أن تحقق في مجالات الإنتاج الغذائي، وعلف الماشية، واستعادة النظم الإيكولوجية فوائد ملموسة لدول جزر المحيط الهادئ والعديد من البلدان النامية. وقد صرح شي بأن التحديث الذي تسعى إليه الصين "ليس من أجل الصين وحدها".

اليوم، انضمت أكثر من ثلاثة أرباع دول العالم إلى مبادرة الحزام والطريق، وسجلت قطارات الشحن بين الصين وأوروبا ١٢٠ ألف رحلة. واستضافت الصين معارض دولية للواردات وسلاسل التوريد والسلع الاستهلاكية لتوسيع فرص الربح للجميع.

وخلال العام الماضي، دعم شي تمكين المرأة خلال اجتماع القادة العالميين بشأن المرأة في بكين، وأطلق مبادرات مع دول أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي، ودفع نحو معاملة الإعفاء من الرسوم الجمركية بنسبة ١٠٠ في المائة لـ٥٣ دولة أفريقية تربطها علاقات دبلوماسية مع الصين، وأعلن عن المساهمات المحددة وطنيا الجديدة للصين في كلمة ألقاها عبر رابط فيديو خلال قمة الأمم المتحدة للمناخ.

تسعى الصين دائما، انطلاقا من الصالح العام، إلى الارتقاء فوق الانقسام والصراع عبر الانفتاح والشمول، وتواجه مستقبل البشرية بإحساس بالمسؤولية المشتركة.

المضي قدما نحو الهدف الكبير

كان السلام والتنمية أيضا موضوعين محورين أكد عليهما شي خلال احتفال كبير أقيم في سبتمبر ٢٠٢٥ بميدان تيانآنمن في بكين بمناسبة الذكرى الثمانين للانتصار في حرب المقاومة الشعبية الصينية ضد العدوان الياباني والحرب العالمية ضد الفاشية.

دعا شي إلى المضي قدما بالروح العظيمة لحرب المقاومة، قائلا "يجب أن نمضي قدما بمبادرة وعزيمة، وندفع متحدين معا قضية بناء الصين لتصبح دولة عظيمة في شتى النواحي وتحقيق

النهضة الوطنية من خلال التحديث الصيني النمط".

كيف استطاعت الصين - التي كانت يوما فقيرة وضعيفة وتتعرض للإذلال - تحقيق القفزة التاريخية من النهوض إلى الازدهار ثم إلى القوة؟

في ٧ يوليو ٢٠٢٥، الذي صادف الذكرى الثامنة والثمانين لبدء مقاومة الأمة بأكملها للعدوان الياباني، زار شي القاعة التذكارية لحملة المائة فوج في مقاطعة شانشي.

وقال إن الإنجاز التاريخي لتلك الحملة "أظهر بشكل كامل دور حزبنا بوصفه العمود الفقري لمقاومة الأمة بأكملها، وعرض بصورة جلية القوة الهائلة للحرب الشعبية تحت قيادة الحزب".

إن طريق الصين نحو التحديث هو طريق اشتراكي يقوده الحزب. وإن قيادة الحزب تؤثر بشكل مباشر في الاتجاه الأساسي للتحديث الصيني النمط وآفاقه المستقبلية ونتائجه النهائية.

وإن حوكمة الدولة تبدأ بإدارة الحزب لنفسه؛ فالحزب القوي يصنع أمة قوية.

ولقد أثبتت الممارسة مرارا أنه كلما ازداد تعقيد الوضع وازدادت صعوبة المهام، أصبح من الأهمية بمكان أن تتمسك الصين بقيادة الحزب وتطبقها وتعززها باعتبارها أعظم قوة دافعة.

في عام ٢٠٢٥، جعل شي من تنفيذ قرار "الضوابط الثمانية" حول تحسين سلوك الحزب والحكومة أولوية في تقوية الحزب.

وعلى مدى السنوات الماضية، أحدث قرار "الضوابط الثمانية" بالفعل تغييرات جذرية، مما أطلق العنان لتحسن ملحوظ في السلوك. وتم معالجة العديد من المشكلات طويلة الأمد التي كان من الصعب التغلب عليها إلى حد كبير. وفي الوقت نفسه، يجب الاعتراف بحدوث تراخٍ في بعض المحليات، ووجود نقاط عمياء وفجوات في مجالات معينة، مع ظهور مؤشرات على عودة بعض الممارسات غير المرغوبة، حسبما قال شي.

وقد وجه شي رسالة واضحة مفادها أنه يجب تنفيذ الإصلاح الذاتي للحزب حتى النهاية.

وقال إن "مهام دفع التحديث الصيني النمط الموكلة إلى حزبنا تنطوي على تحديات بالغة الصعوبة، كما أن بيئة الحُكم معقدة بشكل غير عادي. ويجب علينا أن نشد وتر الإصلاح الذاتي بقوة أكبر".

إن تحقيق النهضة العظيمة للأمة الصينية هو مسعى مشترك لجميع المجموعات الإثنية البالغ عددها ٥٦ في الصين.

وأشار شي إلى أن "الأمة الصينية هي أسرة كبيرة؛ كل فرد في هذه الأسرة يستحق حياة جيدة".

وقد عمل شي على دفع بناء مجتمع الأمة الصينية، بما يضمن اصطفاف إجراءات المسؤولين والجمهور من جميع القوميات مع قرارات وخطط لجنة الحزب المركزية.

وقال شي في حفل الاستقبال الذي أقيم بمناسبة العيد الوطني لجمهورية الصين الشعبية في ٣٠ سبتمبر ٢٠٢٥ "إن تحقيق النهضة العظيمة للأمة الصينية يعد قضية كبرى لم يسبق لأحد أن حاول القيام بها من قبل. وكل من الآمال والتحديات تحفزنا على اغتنام اللحظة والمضي قدما دون تراخٍ".